(٢٢) خاتم الأنبياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: قال المؤلف –رحمه الله تعالى–: وإن محمداً عبده المصطفى ونبيه المجتبى ورسوله المرتضى، وأنه خاتم الأنبياء وإمام الأتقياء وسيد المرسلين وحبيب رب العالمين.

الشرح:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد.،

فقد تكلمنا –في الدرس الماضي– على ما يتعلق بالإيمان بالرسل على وجه الإجمال، وبينا ما يلزم من الإيمان بالرسل على سبيل التفصيل، ثم بعد ذلك في هذا المقام نتحدث عما يتعلق بنبينا محمد ﷺ خاصة، كما قرره الإمام الطحاوي –رحمه الله–.

واعلموا أن الكلام على النبي ﷺ –بأبي هو وأمي– يتناوله العلماء من خلال ثلاثة مباحث: دلائل النبوة، وخصائص النبوة، وشمائل النبوة.

فالكتب التي تصنف في سيدنا محمد ﷺ إما أن تتعلق في دلائل نبوته، والمراد بها: ما يُثبت صدق نبوته ﷺ من أنواع الأدلة.

والثاني: ما يتعلق بخصائصه. سواء كانت خصائص قدرية أو كانت خصائص شرعية، فللنبي ﷺ من الخصائص القدرية –مع كونه بشراً– ما يميزه عن غيره، وله من الأحكام الشرعية أيضاً ما يختص به عن سائر المؤمنين، كما قال الله تعالى: **{خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ } [الأحزاب: ٥٠].**

والشمائل النبوية: هو ما يتعلق بكريم صفاته وحسن خلاله ﷺ. كل هذه أمور يتم تناولها عند الحديث عن النبي ﷺ، وسوف نتناول ما دلت عليه عبارات الماتن –رحمه الله–.

يقول الطحاوي: وإن محمداً عبده المصطفى: هكذا بكسر الهمزة، لأنه –كما أسلفنا– هو عطف على قوله في مستهل الرسالة: نقول في توحيد الله، معتقدين بتوفيق الله: إن الله واحد لا شريك له. فعطف عليه ما عطف، ومنه قوله: وإن. فالصواب كسرها.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ ـ حفظه الله ـ [1]

وإن محمداً عبده المصطفى ونبيه المجتبى ورسوله المرتضى: الاصطفاء والاجتباء والارتضاء معناها متقارب، وربما دعى إليها السجع، وإلا فإن معناها متقارب، وكلها مما يوصف بها نبينا ﷺ: أما محمد فاسمه الشريف، وإن كان له أسماء أخر، فقد قال النبي ﷺ: (اسمي)، أو قال: (من أسمائي: محمد، وأحمد، والماحي، والعاقب، والحاشر)، هكذا جاء في الحديث الصحيح المتفق عليه، فأما اسمه محمد: فهو الذي سماه به أبوه، وهو اسم –قيل– لم يُسبق إليه في العرب، ويدل على الحمد،**وهو الذكر بالأوصاف الحسنة الجميلة،** فهو في حق النبي علم ووصف، علم على ذاته ﷺ، فهو محمد، ووصف له فهو حقيق بالحمد بما يليق به كُمّل المؤمنين، بل هو أكمل المؤمنين ﷺ، واسمه أحمد: أثبته الله تعالى في كتابه في بشارة عيسى عليه السلام حيث قال: **{وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ } [الصف: ٦]** ، وهو يدل أيضاً على كمال الحمد، لأنه خرج مخرج أفعل التفضيل، فاسمه محمد واسمه أحمد، ومن أسمائه ﷺ: **الماحي: لأن الله تعالى يمحو به الشرك،** ومن أسمائه **الحاشر: لأن الناس يُحشرون على عقبه يوم القيامة،** ومن أسمائه **العاقب: لأنه لا نبي بعده،** كما هو ﷺ هذا اللفظ بقوله: (العاقب: أي لا نبي بعدي)، فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، اختاره الله سبحانه وتعالى عن علم وحكمة، وذلك أن الله تعالى اصطفى بني إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاه من بني هاشم، فهو صفوة الصفوة، خيار من خيار، بأبي هو وأمي ﷺ، ولذلك قال: المصطفى. فهذا اصطفاء، والله تعالى يصطفي، الله تعالى يصطفي من الرسل، من الملائكة ومن الناس رسلاً، كما قال ذلك سبحانه وتعالى: **{اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ} [الحج: ٧٥]** ، فقد اصطفاه الله تعالى عن علم وحكمه لما اجتمع فيه من الكمالات البشرية، فاجتباه الله تعالى واصطفاه.

وقد وصفه في الجملة الأولى بأشرف وصف: وهو وصف العبودية، وذلك أن كمال المخلوق يحصل بتحقيق العبودية لله تعالى، فمن كان لله أعبد فهو من أكمل الخلق، فأكمل الخلق هما الخليلان: إبراهيم ﷺ، ومحمد ﷺ، ومحمد ﷺ أكمل وأفضل، فإنه: (سيد ولد آدم، ولا فخر)، كما قال ﷺ، وقد وصفه الله تعالى بوصف العبودية في أشرف المقامات حال تنزل القرآن حين قال تعالى: **{وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا} [البقرة: ٢٣]** ، فوصفه بالعبودية حال تنزل القرآن، وهو حال شريف، **{تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ} [الفرقان: ١]** ، فوصفه بالعبودية حال نزول الفرقان، أيضاً وصفه الله بالعبودية في أشرف ليلة مرت به، وهي ليلة الإسراء: **{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى} [الإسراء: ١]** ، فهذا وصف شرفي، وكذلك أيضاً في حال قيامه بالدعوة التي هي أشرف وظيفة: **{وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا} [الجن: ١٩]** ، ونظائر هذا كثيرة، فالعبودية هو أشرف وصف يتصف به ملخوق:

هذه المادة لم تراجع على الشيخ ـ حفظه الله ـ

ومما زادني شرفاً وتيهاً وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك: يا عبادي وأن صيرت أحمد لي نبياً

فمن ادعى مقاماً أشرف من مقام العبودية فقد ضل وخاب وخسر، وهذا يدعيه بعض الخرافيين من الصوفية حينما يدعون مقام الولاية، وربما زعموا أنه أفضل من مقام النبوة، ولهم في هذا دعاوى عريضة ساقطة متهافتة، فأشرف مقامات المرء هو مقام العبودية لله رب العالمين.

وإن محمداً عبده المصطفى ونبيه المجتبى: إذن وصفه بالعبودية وبالنبوة ثم ثالثاً بالرسالة: ورسوله المجتبى: المجتبى: بمعنى المصطفى: **{ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى} [طه: ١٢٢]** ، فالاجتباء بمعنى التقريب والاصطفاء، فالمعنى متقارب.

والنبوة –كما أسلفنا– مأخوذة **إما من النبأ وإما من النَّبْوة، إما من النبأ: وهو الإعلام، فالله تعالى سمى النبي نبياً لأنه مُنبأ قد أنبأه بوحي من عنده، وإما من النَّبْوة: وهي الارتفاع، لكونه قد فاق غيره.** هذا من حيث الأصل اللغوي.

وأما الرسول فإنه من الرسالة: وهو البعث، وقد بينا في الدرس الماضي الفرق بين النبي والرسول، وذكرنا ثلاثة أقوال، ونقدناها ورجحنا أحدها فيُرجع إليه.

والجمع بين هذين الوصفين: العبودية والرسالة، فيه رد على أهل الغلو ورد على أهل الجفاء: فوصفه بالرسالة رد على أهل الجفاء الذين ينتقصون حقه ﷺ ويتكلمون عنه كما يتكلمون عن سائر الناس، وربما فضلوا الأولياء على الأنبياء كما يقول ذلك ابن عربي الصوفي الزنديق، والوصف بالعبودية: رد على أهل الغلو الذين رفعوه فوق منزلته وخلعوا عليه أوصافاً لا تنبغي إلا لله عز وجل، كغلاة المداحين الذين يحيون الموالد البدعية، ومن ذلك الأبيات المشهورة المنسوبة للبوصيري التي يقول فيها:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم
إن لم تكن يوم معادي آخذاً بيدي عفواً وإلا فقل: يا زلة القدم
فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك أيما نهي، وقال: (لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم، إنما أنا عبد الله، فقولوا: عبد الله ورسوله)، ولما رآه بعض الناس يعني رهب من المقام بين يده قال: (إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة)، أو: (تقد القديد بمكة)، و(القديد): هو اللحم المجفف، يطمئنه بذلك ويسكنه، وكان لما دخل

عليه بعض الناس، بعض الأعراب وقالوا: أنت خيرنا وابن خيرنا، وأفضلنا فضلاً وأعظمنا قولاً، ومضوا في هذا، قال: (يا أيها الناس: قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان) (ولا يستجرينكم الشيطان)، فأفضل ما نعرف به نبينا ﷺ ما عرفه الله به بأن نقول: هو عبد الله ورسوله. كما هو عرف أخاه عيسى ابن مريم: (وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه)، فالوصف بالعبودية والرسالة فيه ميزان الاعتدال، فلا غلو ولا جفاء، وهذا هو المستحق لنبينا ﷺ.

وليعلم أن منة الله تعالى على عباده ببعثة محمد ﷺ منة عظيمة، تنقضي الأعمار دون شكرها، فقد قال الله تعالى: **{لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } [آل عمران: ١٦٤]** ، إي والله، قد كان الناس في ضلالة عمياء وجهالة جهلاء، حتى بعث الله محمداً ﷺ، ليس العرب وحدهم، بل سائر الأمم، تأملوا قول الله تعالى: **{لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ } [البينة: ١]** ما **{الْبَيِّنَةُ}؟ {رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ} [البينة: ٢، ٣]** ، فنعمة الله تعالى ببعثة محمد ﷺ نعمة عظيمة تقصر الكلمات دون بيانها، ونحن نتفيأ هذه النعمة، فنسأل الله أن يرزقنا التمسك بالسنة.

ثم إن الطحاوي –رحمه الله– قال: وإنه خاتم الأنبياء وإمام الأتقياء وسيد المرسلين وحبيب رب العالمين: هذا بعض ما يستحق ﷺ من أوليائه وأتباعه أن يُثنى عليه بما هو أهله، فأما الوصف الأول: وهو قوله: خاتم الأنبياء. فبهذا جاء ناطق الكتاب، قال تعالى: **{مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} [الأحزاب: ٤٠]** ، فلا شك أن النبوة خُتمت به، فلا نبي بعده، فلا نبي بعده، وكما نطق بذلك الكتاب جاءت به السنة، فقد قال النبي ﷺ: (وأنا العاقب فلا نبي بعدي)، وقال في الحديث الآخر: (يكون بعدي ثلاثون كذابون كلهم يزعم أنه نبي، ولا نبي بعدي)، فنبينا ﷺ هو خاتم الأنبياء، **فمن ادعى النبوة بعده فقد كفر، ومن صدقه فقد كفر**، والخاتم: مأخوذ من الختم، فهو خاتمهم جميعاً ﷺ.

وأنه خاتم الأنبياء وإمام الأتقياء: إي والله، نبينا ﷺ هو أتقى الناس لربه، وقد صرح بذلك حينما دعا أصحابه في حجة الوداع إلى أن يفسخوا إحرامهم بالحج إلى عمرة، فشق عليهم ذلك وترددوا، وكان منهم ذلك نوع تورع، لأنهم يقولون: فَنَرُوحَ إِلَى مِنًى ومذاكيرنا تقطر من المني. يعني شق عليهم يحلوا بعد أن أحرموا، وكان عرب الجاهلية يرون أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور، بمعنى أنه لحقهم نوع تورع، فخطب فيهم النبي ﷺ خطبة بليغة وقال: (يا أيها الناس: أما إني أعلمكم بالله وأتقاكم له) أو قال: (وأخشاكم له، افعلوا ما آمركم به)، فنبينا ﷺ أتقى الناس لربه، وتقواه هي القسطاس المستقيم، وهي المعيار السليم الذي يرد إليه كل شيء، فمن خيل إليه أنه

أصوب من النبي ﷺ وأنه يزيد على فعله فهذا ضلال مبين، فلما جاء ثلاثة نفر يسألون عن النبي ﷺ وعن عمله، فكأنهم تقالّوها، فقال أحدهم: أما أنا فإني أصوم ولا أفطر، ولا أفطر. وقال الآخر: أقوم ولا أنام. وقال الثالث: لا أتزوج النساء. فلما بلغت مقالتهم نبينا ﷺ قام وخطب الناس وقال: (أما أنا فإني أصوم وأُفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)، وهذا أمر يجب أن يتنبه له كل مؤمن، فليس أمر الشريعة والتعبد مرده المزاج والاستحسان، وإنما مرده النص والدليل والاتباع والتأسي: **{قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ } [آل عمران: ٣١]** ، فليس لأحد أن يزيد على سنته ويقترح إضافة شيء بدعوى مزيد التعبد لله، وهذا حقيقة البدعة، إذ البدعة: **طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية، يُقصد بالسير عليها المبالغة في التعبد لله تعالى**. هكذا عرفها الشاطبي –رحمه الله–، يقول: البدعة: طريقة في الدين مخترعة. لاحظ: في الدين: ليست في أمور الدنيا. طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية: يعني تحاكيها صفتها وهيئتها، كالعبادات الشرعية من ذكر أو صلاة أو صيام أو نسك أو نحو ذلك، يُقصد بالسير عليها: يعني فاعلوها يقصدون بالسير عليها المبالغة في التعبد لله تعالى، ولكن هذه المبالغة أخرجتهم إلى حد البدعة.

قال: وإمام الأتقياء وسيد المرسلين: وإنه خاتم الأنبياء وإمام الأتقياء وسيد المرسلين: نعم –بأبي هو وأمي– هو سيد المرسلين، وهذه السيادة تظهر جلية بعد البعث، كما سيأتي ذكره عند ذكر الشفاعة إذ أنه يقول عن نفسه ﷺ: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة)، فالناس يوم القيامة ينكفئون إليه، وينجفلون إليه ليشفع لهم عند الله عز وجل، فلهذا يقول عيسى عليه السلام، وهو الذي سبق النبي ﷺ في توجيه الناس إليه، يقول: (أأتوا محمداً عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر)، يعني أنه هو أحرى، أحرى أولي العزم من الرسل بالشفاعة، فيقول: (أنا لها، أنا لها).

لعلنا أن نكتفي بهذا القدر في هذه الليلة وبقي بقية ، نرجئها –بإذن الله تعالى– إلى الدرس القادم.